

«إسلام السوق» لباتريك هايني: زواج الليبرالية بالإسلام



جيزيل دونالد
ترجمة: خديجة حلفاوي

مؤمنين بلا حدود
Mominoun Without Orders
www.mominoun.com للدراسات والبحوث

«إسلام السوق» لباتريك هايني¹: زواج الليبرالية بالإسلام²

تأليف: جيزيل دونارد³ (DONNARD Giselle)

ترجمة: خديجة حلفاوي (المغرب)

1- باتريك هايني (Patrick Haenni) عالم سياسة سويسري، حائز على جائزة أفضل أطروحة دكتوراه فرانكفونية حول العالم الإسلامي، مستشار لدى العديد من المؤسسات والمنظمات الدولية. من أهم مؤلفاته: ((L'Ordre des caïds: étude sur une banlieue populaire du Caire)) و ((Karthala, 2005)) و ((Les Minarets de La Discorde; 2009)).

2- نشر هذا المقال في:

Giselle Donnard, «Recension de Patrick Haenni, l'Islam de marché», Multitudes 2006/3 (no 26), p. 209-213. DOI 10.3917/mult.026.0209

3- مؤرّخة فرنسيّة (1938 - 2006).

«رغم الطفرة التي أحدثتها مسيرة التدين في العالم الإسلامي، إلا أننا نشهد تراجعاً للإسلاموية... لا يمكن رصد هذا الواقع في الغرب، إذ ينصب الاهتمام هناك على العنف الجهادي، ويتم تجاهل الأنماط الجديدة للتدين التي يهيمن عليها هاجس التطبيع الهوياتي والثقافي، والرغبة في الاندماج في المجال العام الكوني»

دفع هذا الأمر بالباحث السويسري باتريك هايني (Patrick Haenni)، وبعد دراسته حول «نظام الأعيان: دراسة لصاحبة شعبية بالقاهرة» (L'Ordre des caïds: étude sur une banlieue) (Karthala, 2005) (populaire du Caire)، إلى نشر كتابه حول «إسلام السوق» (L'Islam de) (Seuil / République des idées, 2005) (marché) الذي يعرض فيه وجهة نظر أصيلة تكسر الدوكسا النمطية، وتسمح لنا بالتفكير [العلمي] في [الظاهرة] الإسلامية.

يشهد العالم العربي-الإسلامي من المغرب إلى جنوب شرق آسيا، وحتى بين ساكنة هذه العوالم بالدول الغربية، إعادة أسلمة حقيقية، ومتنوعة في الآن نفسه، بعيدة كل البعد عن كونها أحادية، جهادية أو راديكالية متشددة في أفق بناء دولة ثيوقراطية. وأبرز النماذج التي اشتغل عليها هايني هناك مصر، وتركيا، وأندونيسيا... واتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا (L'Union des Organisations Islamiques de) (France) (l'UOIF).

بالنسبة إلى هايني، يتعلق الأمر بتقديم صورة واضحة في الغرب حول أحد أهم تيارات المتدينين، معظمها متولد من دوائر من حاشية «الإخوان المسلمين»، الذين أصبحوا على بينة بالمأزق الذي ينطوي عليه الاستيلاء العنيف على السلطة والانسحاب من العولمة.

تنتهي غالبية هؤلاء المتدينين إلى الطبقة البورجوازية التي تطورت بالموازاة مع إعادة أسلمة وإعطاء نفس جديد لنظام اجتماعي أكثر تلاؤماً مع ازدهارهم الاقتصادي. لكن، من الواضح أن الأفكار التي يروجون لها تجد صدى قويا بين الطبقات الفقيرة والشعبية بالشكل الذي جعلهم يشكلون ظاهرة مجتمعية وقاعدة جماهيرية قوية.

ووفقاً لهايني، لا بد من الاهتمام بتحليل هذه الظاهرة التي جعلت الإسلام يعيش نوعاً من «التمزق» الذي يمكن مقارنته بالبروتستانتية المسيحية، كما ذهب إلى ذلك ماكس فيبر.

من الواضح أننا نتجاهل في الغرب هذا التمزق؛ ما يسميه باتريك هايني بـ «التشدد المحبط»، الذي يعيش في ظله «الإسلاميون المستأون» الذين مازالوا متدينين بشكل عميق من جهة، ولكنهم من جهة أخرى ما



عادوا يتحمّلون النزعات الاستبدادية و«بلاغة خطاب خمسينات وستينيات القرن الماضي»، ويشتكون من ضعف كفاءة «المعلمين والشيوخ»، وينتقدون عدم قدرتهم على وضع أنفسهم في العالم الحقيقي، في حين أنهم مدفوعون برغبة جامحة في الانفتاح على الموضوعات التي يحملها السوق العالمي.

تعد المطالبة بالاستقلالية الفردية والانخراط في العالم الجديد الذي لا يخلو من إلهام المبشرين الإعلاميين الأمريكيين أهم محورين منظمين لهذه الحركة. ويحدث أن يسهم هذا الوضع في إحداث بعض التغييرات في طريقة تقديم الإسلام: تجاوز صورة الانتقام من السلفيين، الدعوة إلى إله الحب بـ«زاد من المغفرة والمحبة»، وتقييم العواطف والسعي وراء السعادة الفردية؛ بما في ذلك الطموح وتعزيز النجاح الاجتماعي. هذا ما كان ينشره الداعية «عمرو مصطفى» على التلفزيون المصري. في الواقع، سمح هذا «الانبساط» بتدفق الإسلام في العالم.

تم القيام بمجموعة من الإجراءات الدلالية المثيرة للاهتمام؛ مثل تعويض كلمة «جهاد» بـ«جهاد النهضة» (Djihad de la renaissance) أو «الجهاد المدني» (Djihad civil) و«الجهاد الإلكتروني» (Djihad électronique)... وعلى النقيض من الغطاء الشعبي، يترابط «الموقف الإسلامي» بشكل متزايد مع العالم، ويتصدى لفكرة صدام الحضارات.

يسلط باتريك هايني الضوء على انفصال السلطة السياسية والدينية: «الابتعاد عن أمناء المجالس ورجال الدين» والاستثمار في المجال الاقتصادي؛ أي الانفتاح على السوق.

إن هذه الأدوات الاقتصادية هي التي تمكن الإسلام الجديد من تطوير ثقافة جماهيرية بمساعدة منتجات جديدة مثل بيع الأشرطة الدينية (التي كان إنتاجها بيد السلفيين) والملابس (مثل مجتمع فيتيك (société Vetik)) والموسيقى (المكروهة من قبل السلفيين) والتلفزيون (على طريقة الوعظ الأمريكي والبرامج الحوارية) والمواقع الإلكترونية المتداولة، والأغذية (قنوات الحلال ومكة كولا...); وهي المنتجات المتداولة بين اتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا. يبدو أن «العلاقات الناعمة مع السياسة» و«تبسيط الدين»، وهو أمر يؤثر لا محالة في السلفية، تمكن من تكسير العزلة، والإغواء و«تتهدى الهامشية التي تطل مجال الوعظ»: المنوعات، والبرامج الحوارية... لكن إذا كان هؤلاء المسلمون المتدينون غير رجعيين، فلماذا لا يزالون محافظين للغاية؟

يتعلق الأمر بتأكيد إسلامويّ يحركه رجال الأعمال المسلمين الثقات، ذهب باتريك هايني لتسميته بـ«الهجرة البرجوازية» التي عوضت «الموت في القتال» بـ«العيش كتجارة». هو تأكيد حاضر بقوة ويتخذ شكل عملية تشفير يريد أن ينطبع على المستوى الدولي، فضلا عن الاستثمار في حقل الأخلاق، حيث تجد

«إعادة السحر المعتدلة للعالم» مكانا لها في هذا العالم (هل يمثله التوسط بين البرقع والتتورة القصيرة؟). والاستجابة بمصطلحات تجارية كانت واضحة في ما يتعلق بمكة كولا التي ناهضت استعمار الكوكاكولا ودعمت الفلسطينيين. تعد صناديق التضامن عنصرا أساسيا ضمن هذه الأخلاقيات. أمّا نماذجها، فستكون «المكافحون» أكثر منها «المجاهدون» منهم على سبيل المثال توفيق المثلوثي، المنتمي في الأصل إلى مكة كولا «نموذج النجاح الليبرالي». هؤلاء المكافحون النقاة يحركهم في نجاحهم الإيمان والمثابرة في الوقت نفسه.

يدفع هايني تحليلاته إلى مدى أبعد كي يكشف لنا عن عنصر ثان مهم للغاية في صياغة شروط هذا الوضع، والمقترن بفكرة ظهور «صراع ثقافي» (Kulturkampf) فلسفي حقيقي طال «القدرية الإسلامية» والقدرية الفلسفية في العالم الإسلامي، كل ذلك في إطار الحرص على التقوى العميقة.

إذا أردنا فهم «إسلام السوق»، فيمكننا القول إنه عنصر أساسي ضمن إسلام اليوم. لقد أضحت القدرية الإسلامية، في سياق استنكاتها، العقبة الرئيسية أمام تأكيد الإسلام، والتقوى الإسلامية، وإحباطا حقيقيا لهما. لذلك، نجدها واحدة من الموضوعات المفضلة لدى الداعية التلفزيوني الشهير عمرو خالد، ضمن إشكالية «صناعة الوجود» (la fabrication de l'existence).

تشكل الأمثلة الرئيسية لهذه الطبقات البورجوازية الحاملة لهذا السيناريو كلاً من: «النمور الأناضولية»، والانفتاحيون المصريون، والطبقات التجارية في أندونيسيا؛ نظرا لكون إسلام السوق لا يمثل تدين الطبقات المحرومة. وبالنسبة إلى الطبقات البورجوازية، فهي ترى أن الفقر، صديق الفشل، يقود نحو الوقوع في الخطيئة. وعلى سبيل المثال، تظهر الفواصل الإعلامية نساء جميلات، غنيات ويرتدين الحجاب.

نجد كذلك جمودا في مسألة التفاوتات الاجتماعية، حيث يمكن القول إن الأمر يتعلق بإسلام «أرستقراطي» (وهو الأمر الذي ينظر إليه على أنه عدم استقرار لدى اتحاد المنظمات الإسلامية). نجد امتدادا لهذه المعركة في وعظ عمرو خالد بمصر؛ والذي يكرر الانغلاق في مجال التقوى.

يهدف باتريك هايني إلى تقييم «التكوين السياسي الديني الجديد» الذي بدأ في الظهور، حيث تراجعت قضية «الدولة الإسلامية» لتحل محلها «دولة الحد الأدنى». يستكمل العديد من أبناء البرجوازية في الولايات المتحدة الأمريكية، ويعملون في دول الخليج التي تطورت فيها قيم «الإنجاز» بشكل كبير. ما يتم الاحتفاظ به هو الروح الإدارية التي تعتمد على أساليب العمل بالمشاريع والشبكات في حين أن الإسلاميين التقليديين لازوا يعيشون ضمن فضاء البنيات المتضخمة لحواشيب الثلاثينيات الأوروبية. لهذا، يفضل إسلام السوق نموذج «الكوتش أو المدرب» (مثل عمرو خالد) بدلا من الزعيم الديني أو الزعيم السياسي.

في هذا التكوين، يمكن استعمال مصطلح النيوليبرالية في علاقته بالاستقلال الذاتي النسبي فيما يتعلق بمجال الدولة القومية، وبشكل متزايد مع مرحلة العولمة، دون مبالغة. يجد الدين مكانة مركزية في مجتمع مدني «متحرر من وصاية الدولة» وليس «دولة كتابية». بطبيعة الحال، يتم حجب مسؤولية الدولة عن المجال الاجتماعي الذي لم يعد بحاجة إلى وصايتها، والانتقال نحو «دولة الرفاه» وتقزيم دور الدولة (عنوان الفصل الرابع فاعلون لتحجيب دور الدولة)؛ وهو الأمر الذي تطورت أسسه في مصر، والسودان، وتركيا... إلخ.

يجادل الكاتب في طبيعة هذا التكوين، والذي يمثل رغبة في الحداثة تؤدي إلى الميل نحو «أمريكا المحافظة» و«المحافظة الرحيمة»، حيث يحتفظ الدين بمكانته الأساسية دون الحاجة إلى إنشاء طبقة ثيوقراطية.

نذكر هنا بأن هؤلاء المسلمين هم محافظون، أعداء «تعددية أنماط الحياة» ويعتبرونها غير أخلاقية، وهم محافظون فيما يخص الإجهاض، والنسوية، وحركات المثليين/السحاقيات.. إلخ. ويجدون بعض التوافق مع الديمقراطية الأمريكية كما كان يجسدها جمهوريو إدارة بوش وأمريكا العميقة.

نحن بعيدون كل البعد عن التحليل الكلاسيكي للإسلاموية في كونيتها، والتي اتخذت من أمريكا عدواً لها. هذا الأمر يفتح سبلا جديدة، وربما غير مسبوق للخطط الأمريكية حول إعادة تنظيم الشرق الأوسط الكبير.

صحيح أن إسلام السوق لم يحظ بالأهمية التي يستحق. لكن مع ذلك، تظل المشكلة الحقيقية الواجب استكشافها في صلته بالطبقات الفقيرة، والتي يعتبرها «إحباطاً» في حد ذاتها، على اعتبار أن دعمها لا يزال مسألة لا غنى عنها لإحداث تغييرات كبيرة. في الوقت الراهن، يتم نشر ثقافة إسلام السوق جماهيرياً، لكن سيكون من الضروري معرفة ما إذا كانت الطائفية الاجتماعية قادرة على تلبية توقعاته.

دعونا نأمل أن يصدر كتاب جديد يسلط الضوء على مثل هذه التطورات.

MominounWithoutBorders



Mominoun



@ Mominoun_sm



مُهْمِنُون بِلا حُدُود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط - أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : +212 537 77 99 54

الفاكس : +212 537 77 88 27

info@mominoun.com

www.mominoun.com